الباب الثانى

شوق الإنسان فى شوامخه الدينية

إن من يتمعن فى شعر شوقى فى النبويات أو المناسبات الدينية المنبثة فى أجزاء الشوقيات ، يلمس أول ما يلمس شعراً علوياً نابضًا بالإيمان العميق ، ونظماً نابعًا من نفس قد تجردت من مباهج الحياة . واتجهت بكل أحاسيسها إلى ما وقف نفسه على الاسترسال فيه كروح ترف فى شفافية ونقاء وصفاء حول ما هو بسبيله من نظم فى شأن الدعوة لقداسة الأديان وطهارة طريقها السوى .

لقد نظم فى النبويات قصائد ثلاث هى : « سلوا قلبى ، وريم على القاع ، وولد الهدى » بخلاف ما أشاد فيه بنظمه ، بالرسائل السماوية جميعاً .

شدت الراحلة الكريمة السيدة أم كلثوم بالنبويات ، بعد أن قام بتلحينها تلحيناً كتب لها الخلود . الموسيقار رياض السنباطى . بحيث أصبحت ، برغم ما احتوت عليه من ألفاظ لا يرقى إلى فهم معانيها . إلا من نال قسطاً من الثقافة الشعرية والدينية . فإن سلاسة النظم وموسيقى النظم وعذوبة الأداء الصادق الخاشع . قد أعانت كل من استمع إليها على التغلغل فيما حوته وضمته من معان علوية قدسية . رفيعة البناء . جليلة المعنى . وكان المستمع من فرط انجذابه

للإحاطة بكل معنى شد حواسه ، ومضى لمن يأنس فيهم المعرفة ، ليقف منهم على ما دق على فهمه من معان ومقاصد ، ليزداد استمتاعاً بما أطربه وشجاه .

تعالوا نقف عند أبيات من قصيدة (ذكرى المولد) التى كان مطلعها :

سلوا قلبى غداة سلا وتابا لعل على الجمال له عتابا

فقد سلك فيها شوقى مسلك قدامى الشعراء العرب الذين كانوا يبدأون قصائدهم بالنسيب المصطنع ، ثم يدلفون إلى موضوع قصائدهم ، غير أن شوقى فى هذه القصيدة ، شأنه فى غيرها مما نظمه فى المناسبات الدينية ، يبدأ بنسيب يلذ للأذن الإنصات له ، ويطيب للنفس التغنى به من فرط ما حواه من غزل شف ورق وسما سموًّا يتناسب وما سوف يتلوه من مقاصد دينية انبرى للكشف عنها :

ولى بين الضلوع دم ولحم هما الواهى الذى ثكل الشبابا
تسرب فى الدموع فقلت ولّى وصفق فى الضلوع فقلت ثابا
ولو خلقت قلوب من حديد لما حملت كما حمل العذابا

ثم انظروه وهو يقول قول الحكماء :

وكان بساط عيش سوف يطوى وإن طال الزمان به وطابا
كأن القلب بعدهمو غريب إذا عادته ذكرى الأهل ذابا
ولا ينبيك عن خلق الليالى كمن فقد الأحبة والصحابا

فى هذا البيت الأخير لفتة إنسانية ، لا تصدر إلا عمن امتلأ قلبه بالأسى

والشجى والوفاء ، وعرف غدر الزمان والأيام ، وفاض به الإيمان بما قسمه له الله فهذه مشيئته ، ثم يمضى ليقول :

وأرسل عائلا منكم يتيما ... دنا من ذى الجلال فكان قابا
نبى البر بيّنه سبيلا ... وسن خلاله وهدى الشعابا
وكان بيانه للهدى سبلا ... وكانت خيله للحق غابا
وعلّمنا بناء المجد حتى ... أخذنا إمرة الأرض اغتصابا
وما نيل المطالب بالتمنى ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم منال ... إذا الإقدام كان لهم ركابا

أقول ، إن من يمعن الفكر فى محتوى هذا النظم من بدايته إلى منتهاه ، يلتقى بإنسان تفيض روحه بمحبة الإنسانية ومحبة البشر والحث على طلب المعالى بكل ما أتاحه الله للإنسان من قوة وإقدام .

وننتقل للهمزية النبوية التى يقول فى مطلعها :

ولد الهدى فالكائنات ضياء ... وفم الزمان تبسم وثناء

إنه يصف ما واكب الميلاد من مظاهر قدسية علوية ، ثم يحيط بصاحب الرسالة شارحًا ما انطوى عليه من خلق وسمو أهلاه عند الله ليكون رسوله وآخر رسله للبشر :

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا ... منها وما يتعشق الكبراء
زانتك فى الخلق العظيم شمائل ... يغرى بهن ويولع الكرماء

وإذا سخوت بلغت بالجود المدى ... وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادراً ومقدراً ... لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب ... هذان فى الدنيا هما الرحماء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته ... فجميع عهدك ذمة ووفاء

وثمة أمر آخر فى نظم شوقى فى مناسباته الدينية ، يشف عن فهم عميق لمرامى الدين الحنيف ، وقياسه بمقاييس العصر ومناهج الحضارة ومذاهبها . وما حملته من أسماء ومسميات تستلزمها المعاصرة ، فيذهب فى ذلك إلى قوله :

بك يا ابن عبد الله قامت سمحة ... بالحق من ملل الهدى غراء
بنيت على التوحيد وهى حقيقة ... نادى بها سقراط والقدماء
ومشى على وجه الزمان بنورها ... كهان وادى النيل والعرفاء

إلى أن يقول :

داء الجماعة من أرسطاليس لم ... يوصف له ، حتى أتيت دواء
فرسمت بعدك للعباد حكومة ... لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده ... والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة ... والأمر شورى والحقوق قضاء
الاشتراكيون أنت إمامهم ... لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئداً وداووا طفرة ... وأخف من بعض الدواء الداء
والبر عندك ذمة وفريضة ... لا منة ممنونة وجباء

جاءت فوحدت الزكاة سبيله حتى التقى الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل فى حق الحياة سواء

* * *

ما نظن أن شاعرًا ممن سبق شوقى ، كما لا نزعم أن شاعرًا ممن سيأتى من بعده . يستطيع أن يلم بحقائق ودقائق الدين العلوى الشريف بمثل هذه الإلمامة العصرية التى طرحها لتفترش حقبة منذ عهد أرسطاليس حتى ظهرت الاشتراكية بمدلولاتها وأهدافها المتباينة ، التى يتباهى بها المفكرون فى هذا الزمان ، بدعوى نصرة الضعفاء وأخذ حقهم من الأقوياء ، والانتصاف للفقراء من الأغنياء .

ولكن شوقى فى تفسيره لما أنزله من آيات فى هذا الشأن ، حفظ على الفقراء كرامتهم ، وساوى بينهم وبين الأغنياء ، الذين نبههم إلى أنهم لا يمنحون تكرماً وإحساناً . ولكن للفقير والسائل والمحروم حق فى مالهم . وهذه رسالة إنسانية تعلو على كل المذاهب الاجتماعية التى أتى بها العصر الجديد ، للسيطرة على الشعوب من خلال مظهر خلاب براق ، ينادى بالتساوى ، وإزالة الفوارق بين الناس ، وجوهر صارم يستمتع فى ظله أصحاب هذه المبادئ .

* * *

ومثال آخر لشوقى فى نهج البردة التى بدأها بقوله :

رِم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

فهو كما سبق وشرحنا ، التزم فيها بما كان يذهب إليه قدماء شعراء العرب من غزل ونسيب ولكن شوقى عندما نحا هذا المنحى ، قال :

يا لائمى فى هواه والهوى قدر ... لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم
لقد أتلتك أذناً غير واعية ... ورب متصِت والقلب فى صمم
يا ناعس الطرف لاذقت الهوى أبدًا ... أسهرت مضناك فى حفظ الهوى فنم

هنا نستمع إلى غزل رقيق شفيف عفيف ، جرى فيه من حيث المظهر مجرى السلف ، ولكنه بزهم فى العرض والموسيقى والرقة العاطفية التى يظن قارئ هذه الأبيات أنه إنما انقطع لشعر غزلى تعرض قائله لموقف عاطفى أنطقه بهذه الطلاوة والرقة . حتى ليرق له قلب المستمع الإنسان ، لشاعر إنسان .

ولم تخل القصيدة من الحكمة ، وهو شاعر الحكمة العميقة الغور ، التى تجدها فى مكانها ، من غير أن يقحمها أو يفرضها ، ولكنك تجدها فى مسارها ومجراها كأنها قد صيغت من قبل صياغته ما صاغ ، لتكون فى هذا الوضع الذى قرأتها فيه انظروه وهو يقول :

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه ... فقوم النفس بالأخلاق تستقم
والنفس من خيرها فى خير عافية ... والنفس من شرها فى مرتع وخم

وفى ذلة المرتجى غفران ربه يقول :

إن جل ذنبى عن الغفران لى أمل ... فى الله يجعلنى فى خير معتصم
إذا خفضت جناح الذل أسأله ... عز الشفاعة لم أسأل سوى أمم
وإن تقدم ذو تقوى بصالحة ... قدمت بين يديه عبرة الندم

هذه لمحات لا تصدر إلا عمن امتلأ قلبه خشية الله ، لأنه إنسان يعتز بخالقه

المبدع لكل شيء ، ويتشرف بالتذلل له وسؤاله العفو والمغفرة ، فهو من خلقه ومن صنعه الذى نفخ فيه من روحه فصار إنساناً ، ثم يختم ختاماً بالغ الروعة ، باهر السناء عندما يدعو ربه بقوله :

يا رب هبت شعوب من منيتها ... واستيقظت أمم من رقدة العدم
رأى قضاؤك فينا رأى حكمته ... أكرم بوجهك من قاض ومنتقم
فالطف لأجل رسول العالمين بنا ... ولا ترد قومه خسفاً ولا تسم
يا رب أحسنت بدء المسلمين به ... فتمم الفضل وامنح حسن مختتم

من أين لنا بشفيع يقف مثل هذا الموقف الإنسانى النبيل ، الذى يلتمس لأمة محمد ، ما بلغته أمم أخرى كانت تحبو عندما انتشر الدين وعنت لعدله وإنسانيته عتاة الحكام ، إلى أن بلغ الهوان بالأمة الإسلامية مبلغاً جعلها مطمعاً لكل طامع ، فاستجار بالله لينقذ أمة محمد مما فعلوا بأنفسهم من تركهم تعاليم دينهم وانصرافهم إلى متاع دنياهم .

* * *

فى ثنايا نظم شوقى فى نبويّاته وإسلامياته الكثيرة العديدة المنبثة فى كل ما نظم فى هذا الشأن ، نلمح نفحة علوية ، ونلمس روحًا شفيفة طاهرة نقية ، تتحدث كما لو كانت من وراء حجاب طهور ، من فرط تجردها وتوهجها ، لتبعث فى جوانب المستمع خشية وخشوعًا ، منذ أن فاضت بالحكمة والموعظة الحسنة ، وطلب الاستغفار للمخطئ والتماس العفو لمن ضلت نفسه عن حقيقة الدين وتعلقت بضلال الدنيا .

وعندما كان شوقى يشيد فى نظمه بالخلافة الإسلامية ، فى مواقف عديدة ، لم تكن تخلو كثيراً من النقد البناء ، إنما كان يفعل ذلك لأنها خلافة المسلمين كافة ، وموضع عزتهم وفخارهم ، لا لأنه كان ينحدر من أصل عثمانى كما اتهمه بذلك شانئوه ، ولكن لأنه مسلم يعتز بخلافة قوية عادلة حازمة ، بعد أن اتسعت رقعتها حتى بلغت أقصى الغرب وأواسط أوربا وجانباً كبيراً من روسيا ، إلى أن دب فيها فساد الحكام وأمرضتها التخمة وأصبحت عليلة يطمع فيها كل قوى قادر .

وعندما قاد مصطفى كمال جيوشه المظفرة لطرد المحتلين من يونان وإنجليز وفرنسيين لمواقع عديدة من تركيا ذاتها ، حتى دانت له وكتب الله له النصر تلو النصر ، كبر شوقى وهلل ، وهو الذى كان يرقب ما يجرى بعين واعية وقلب كليم ، حتى جاء نصر الله والحق . وبادر بنظم قصيدته .

الله أكبر كم للفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب

* * *

وليس يكفى للمسلم أن يلتزم بفرائض الإسلام الخمسة ، لكن عليه أن يكون فى تعامله إنساناً ، يعتز بسجوده لله الخالق المبدع ، لشكره على نعمة وجوده كلما قام للصلاة ، ويلزم نفسه بالطاعة وتقويم شهوات النفس ، كما قام بالصيام ، ويحمد الله على نعمة عطائه ، كلما وصل محروماً وأمد سائلا بما يسأله ، لأنهم إخوة له ، ولو شاء الله لأعطاهم كل ما بين يديه من نعم ، وسلكه فى زمرتهم ، ولكن حكمة الله التى جعلت الناس بعضهم فوق بعض

درجات ، أمرت بالصدقة والتراحم .

والإنسان فى الشهادتين ، يشهد بوحدانية الله وبالصلاة على نبيه ، (إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) . ويشهد بأنه رسوله الذى بعثه بالحق والهدى ، والإنسان فى شهادتيه يصدر عن شعور وبصيرة بعظمة الخالق وخلق الرسول ، وهو إذا حج لبيت الله ومسجد رسوله ، إنما هو إلى جانب طاعته لأمر الله ، يلتمس التبرك والتعمق والعبرة عندما يطوف بهذه الأماكن المباركة التى قامت منها الدعوة ، ويلتقى بطوائف جاءت مثله من كل فج عميق فيتم التعارف الذى يعقبه تبادل فى المنافع .

وهو فى زيارته لمثوى النبى ومسجده الكريم ، إنما يسعى إلى خير غاية حيث يتنسم فى أرجاء المسجد عطر النبوة وشذى الرسالة ، ويستعيد مآثر النبى وجهاده فى نشر رسالته وما أصابه على يد المشركين ، وكيف كان سمحًا كريمًا عندما غلبهم ، على قومهم ، وجاءوا إليه أذلاء يسألونه ما هو صانع بهم ، وهو الكريم ابن الكريم ، فيقول لهم بكل تسامح الشريف العزيز :

« اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

والدين فى يقين وقرارة نفس شوق ، تهذيب وخلق ومحبة وتسامح ، ومبادلة للخير والنفع ، وخلود إلى الأخذ من الدنيا بما ينفع ، والصبر إذا ما غاب مطلوب ، فعلى منتظره أن يصبر حتى يلقاه على يد صاحب فضل أو صانع خير .

ولشوقى فى ذلك شعر حكيم ينم عن إنسانيته :

وإذا الدنيا خلت من خيرٍ وخلت من شاكر هانت هوانا